النجـــوم

للقصصى الفرنسى الفونس دوديه

عند ما كنت أرعى الماشية على جبل (الليبرون) كنت أقضى أسابيع طويـــلة لا أبصر فى خلالها مخلوقاً حياً غير كلبى (لابرى) وقطيعى فى المرعى ، وقسيس جبـــل (الاور) وبعض عمال (البيامون) مارين من هناك فى سبيلهم ، تلك الجماعة التى أخرستها الوحدة وشغلتهما عن تسقط أخبار قرى الساحل ومدنه . ولهذا كنت أشعر بالسعادة تمر بى كلما سمعت رنين أجراس بغلنا ـــ آتيا يحمل الى الزاد كل خمسة عشر يوما ـــ مرة مع أجيرنا ومرة مع عمتى . فكنت أتلقى منهما أخبار البلد من تعميد وزواج وغير ذلك ، وأهتم خاصة بما آلت اليه ابنة سيدى الآنسة ستيفانيت ، هذه الآنسة التى فاقت أترابها بجمالها الفاتن ، وأستفهم بلباقة عما اذا كانت تكثر من حضور الحفلات العامة او قضاء الليالى الراقصة ، وهل تقدم الى خطبتها أحد . كل ذلك كنت أقف عليه دون أن أترك لمحدثى سبيلا يلحظ منه هذا الاهتمام البالغ ، ودون يسألنى الآن لماذا كانت تعنينى هذه الأمور أجبه بأنى شاب فى العشرين من عمرى وان الآنسة ستيفانيت أجمل فتاة رأيتها فى حياتى

وفى ذات مرة كنت أنتظر الزاد يوم الأحـــد فتأخر عن موعد وصوله ، فحملت ذلك فى الصباح على « حفلة القداس الكبير » وفى الظهر على ان الدابة لم تستطع متابعة سيرها لرداءة الطريق بعد هبوب العاصفة الشديدة ، وفى الساعة الثالثة بعد الظهر تماما ، بينما الجو فى صفاء أديمه ، والجبل يرفل فى حلته اللؤلؤية . وخرير المياه يشنف أذنى . سمعت رنينا مطربا كأنه رنين الناقوس فى عيد الفصح . فتحققت ان الدابة التى أنتظرها آتية . ولما تبينتها ملياً لم ار معها لا الأجير ولا العمة وانما رأيت عليها . . . أتعرف من ! . . . آنستا ! نعم آنستنا ستيفانيت نفسها . فقد شاهـــدتها منتصبة على ظهر البغل بين السلال . موردة الوجنتين كأن نقاوة الهواء وطراوة الجو بعثتا فى وجهها الحياة .

وقبل أن تطأ قدماها الارض أخبرتنى أن الاجير المسكين مريض لا يغادر فراشه ، وأن عمتى (نوراد) غائبة منذ أيام عند أبنائها . ولما سألتها عن سبب ابطائها اجابت « انى ضللت الطريق » ولكن من يبصرها فى أبهى زينتها ، بشريطها الحريرى المغطى بالزهر ، ورداتها اللماع المطرز الحواشى ، يحكم بأنها كانت تلهو بالرقص ـ لا بالتفتيش عن الطريق بين الادغال .

آه ما الطف هذه المخلوقة التى لم تملها عيناى وما أجملها ! كنت بالامس أشاهدها أحيانا فى الشتاء وانا عائد فى المساء من الحظيرة الى المزرعة لاتناول طعامى ، فكانت تدخل غرفتها وهى فى زينتها وكبريائها دون أن تكلم أحدا من الخدم . . . . حينئذ علمت أنى ما تأملتها من قبل فى مثل هذا القرب . وبعد أليست الآن واقفة أمامى فى هذه الخلوة التامة فلم لا أعانقها ؟

ولما أفرغت (ستيفانيت) السلال أخذت تتأمل كل ما حولها باهتمام ، ثم نزعت ثوبها الفضفاض ـ الذى لا ترتديه الا أيام الآحاد ـ خوفا عليه من التلف ، ودخلت المراح تريد ان تشاهد المكان الذى انام فيه ، وفراش القش المغطى بفروة الخروف ، ومعطفى الضخم المعلق على الجدار ، وهراوتى الغليظة ، وبندقيتى العتيقة . فكان فى هذه الاشياء مسلاة لها .

ـــ اذن أنت تقضى أيامك فى هذا المكان أيها الراعى المسكين ؟ لابد أن تكون قد مللت الحياة فى هذه الوحشة وتلك العزلة ! والا فقل لى ماذا تفعل ، وفيم تفكر ؟

فهممت بأن أجيبها : « انى أفكر فيك يا سيدتى » كما هو الواقع ، ولكنى كنت فى حالة اضطراب شديد ، فلم أجد كلمة واحدة أقولها لها . ولما توسمت وجهها لاحظت أنها شعرت بما يجول فى خاطرى ، وكانى بها أرادت ان تزيد فى حيرتى وتلعثمى لتتلذذ فى قرارة نفسها ، فقالت :

ـــ وصديقتك العنزة الذهبية اللون ، هل تزورك احيانا ؟ أنا لا أشك فى اخلاص هذه الشيطانة التى لا يلذ لها الجرى الا على

الاعصاب فذهبت اعودها يوماً فلم أجد بالدار أحداً ، سألت عنها مرتاعة ، وأخيراً علمت أنها فارقت الحياة امس مساء ، سألت ماذا حل بها وأى أمر جديد انتابها ؟ فعرفت انها لم تصب بشى جديد ، وانما فارقت الحياة وكانها الشمعة تحترق . فارقتها شيئاً فشيئاً وقد لاقت ربها وعلى فمها ابتسامة رضا وطمأنينة ، مر اذ ذاك بخاطرى قول الشاعر الامريكى برانيت ، ذلك القول الذى كانت تردده أثر كل فشل أو مصاب ، والذى ظلت تردده كثيراً فى آخر أيامها : « هكذا عش ، حتى اذا ما نادى منادى الموت لا تسر اليه كالعبد مسوقاً الى سجنه ، بل سر اليه بايمان ثابت ، وطمأنينة تامة كمن يسحب غطاءه عليه ليستسلم الى حلم عذب جميل . »

ولكن ستيفانيت نفسها بوجهها الضحوك ، ورأسها المنحنى ، واسراعها فى العودة اسراعا كاد يجعل زيارتها اغماضة عين ، كانت أشبه بهذه الشيطانة المذكورة .

— استودعك الله أيها الراعى .

— سلاما يا سيدتى .

ولم اتم جوابى حتى كانت فى طريقها وليس معها غير سلالها الفارغة . ولما اختفت عن ناظرى فى المنحدر خلت ان الحجارة المتناثرة من حوافر الدابة كانت تقع على قلبى واحدة بعد واحدة .

ومع أنها أصبحت بعيدة عنى فقد ظل صوت الحجارة المتناثرة يدوى فى أذنى . وبقيت حتى ازف المساء كأننى فى غفوة لا أتحرك من مكانى خوفا من ان يتبدد هذا الحلم اللذيذ . ولم أصح الا على صوت يناديني من السفح . وكان الليل بدأ يرخى سدوله والقطيع أخذ يزاحم بعضه بعضا ليدخل الحظيرة . وبينا انا أفتش عن مكان الصوت ظهرت أمامى فجأة الآنسة ستيفانيت ، ولكن بغير الهيئة التى قابلتنى بها فى المرة الأولى . قابلتنى وهى ترتجف من البرد والخوف ، وأثوابها مبللة ، فعلمت حينئذ ان فيضان نهر (السورغ) فى الوادى بعد تلك العاصفة الشديدة اخذ عليها الطريق ، فخافت على نفسها ان هى اجتازته . والأغرب من ذلك انها ساعة ودعتنى ما كان يجب عليها أن تفكر فى الرجوع الى المزرعة ، وما كان بامكانى ان أترك القطيع وحده لأرافقها فى طريقها الوعر ،

ويظهر ان فكرة الأقامة هذه الليلة فى الجبل كانت تزعجها ولا سيما عند ما كانت تفكر فى قلق أهلها عليها . فكنت أهدىء من روعها واطمئن بالها بما أستطيع اليه سبيلا . واذكر أنى قلت لها ان ليالى يوليو قصيرة ، وان السماء يصفو أديمها بعد حين .

وأشعلت النار بسرعة وأخذت ادفىء قدميها وأجفف أثوابها . ثم قدمت اليها شيئا من الجبن والحليب . ولكنها لم تكن لتفكر فى الدفء ولا فى الأكل تلك الساعة ، واسترسلت فى النحيب حتى كدت ابكى لبكائها .

ولما ارخى الليل سدوله تماما ولم يبق على قمة الجبل غير شعاع حائل من الشمس ، والا قطفة من نور فى حواشى الافق ؛ امسكت بيد الآنسة وأدخلتها المراح لتستريح ، فتمددت على فروة ناعمة الصوف كنت قد فرشتها على القش الطرى ، ثم خرجت من عندها لأجلس لدى الباب متمنيا لها ليلة سعيدة . . .

ويشهد الله انى لم تخامرنى فكرة سيئة قط ، بالرغم من نار الحب المتأججة فى دمى . ولكنى كنت فخورا جداً لأن فى زاوية من المراح تنام فى حراستى ابنة سيدى — كأنها نعجة أثمن من تلك النعاج التى ترمقها بنظرات الاهتمام وأشد منها بياضا .

والحق يقال انى لم أر السماء من قبل بمثل هذا الصفاء الذى رأيتها به فى تلك الليلة . ولا النجوم بمثل هذا النور الساطع الذى كانت ترسله . .

وفجأة فتح باب المراح : وظهرت منه ستيفانيت . فالغنم كانت تزعجها بأصواتها فتمنع عنها لذة النوم . لذلك أحبت أن تأتى قرب النار . ولما لاحظت منها ذلك وضعت معطفى على كتفيها وأرّثت النار ثم أدنيتها منى . وبقينا مدة جالسين جنباً الى جنب لا نجد حديثا نفتحه ولا حادثا نشرحه .

ويعلم الذين قضوا بضع ليال فى الفلوات ان عالما خفيا يهب من سباته ساعة ينام الانسان فى هذا الانعزال التام والسكون العميق ، فى هذه الساعة تستيقظ الطبيعة . فالينابيع تغنى بصوتها العذب . وترسل المياه الراكدة بريق لألائها السماوى . وتأخذ الاشباح تروح وتجىء ، وترتفع فى الهواء أنغام خفية وأصوات كالحفيف ، وكأن الأغصان أخذت تمتد والاعشاب تنمو . فالنهار يعطى الحياة للمخلوقات الحية ، أما الليل فيعطيها للاشياء الميتة . وهذا مما يرعب الانسان إذا لم يكن له به سابق عهد أو عادة . . ولهذا كانت الآنسة ترتجف أبداً من الخوف ، وتلتصق بى كلما سمعت صوتا كأنها طفلة صغيرة .

وفى ذات مرة تعالت جلبة محزنة من المستنقع فى الوادى وارتفعت الينا تموجاتها مع الأثير . ثم رأينا شهابا جميلا يهوى فوق رأسينا من عل ويتجه نحو ذلك المستنقع كأن الضجة التى كرهنا سماعها تحمل معها بارقة خير . فسألتنى ستيفانيت :

— ماذى جرى ؟

— نفس دخلت الجنة ياسيدتى .

فرسمنا الصليب على صدرنا ثلاثا وبقيت هى تنظر الى السماء بنفس مطمئنة ، ثم قالت :

— أصحيح مايقال عنكم معشر الرعاة انكم سحرة ؟

— لا ياسيدتى ، إنما نحن أقرب هنا الى النجوم من سكان السهل ، ولذلك فنحن أكثر منهم علما بما يجرى فيها .

ثم وضعت يدها على فودها وقالت :

— ما أكثر هذه النجوم وما أجملها ! أنا فى حياتى ما رأيت هذا المنظر . . . . هل تعرف أسماءها أيها الراعى ؟

— نعم أيتها الآنسة . . . . أنظرى ! فوق رأسينا تماما ترين « طريق سان جاك » (المجرة) الممتدة من فرنسا الى اسبانيا ، تلك الطريق التى اختطها (سان جاك دى غاليس) ليرى الفاتح العظيم (شارلمان) سبيله عند ما كان يحارب « العرب » وعلى

مسافة منها ترين محفة الأرواح (بنات نعش الكبرى) بأقطابها الأربعة الساطعة . وعلى مقربة منها « الحيوانات الثلاثة » . والنجم الصغير المقابل للثالثة هو « السائق » ؛ وانظرى من حولها هذه النجوم الهاوية ، إنها النفوس التى لم يقبلها الخالق فى جنته . . . . وتحتها بقليل ترين « المشط » أو « الملوك الثلاثة » (الجوزاء) التى نستعين بها على معرفة الوقت . فيكفى ان القى عليها نظرة واحدة لاتأكد أن نصف الليل قدانقضى . وعلى مسافة منها للجنوب يلمع «جان دى ميلان » سراج الكواكب كلها (الشعرى اليمانيه) واليك الحكاية التى يرويها الرعاة عنها :

فى ذات ليلة دعيت الشعرى اليمانية و « الملوك الثلاثة » والثريا الى حفلة زواج احدى صديقاتها النجوم . فتقدمت الثريا رفيقتيها وانطلقت حتى استقرت فى أعالى طبقات الجو كما ترينها ؛ ولحق بها « الملوك الثلاثة » بطريق أدنى ؛ أما الكسول « جان دى ميلان » فقد أخره نومه عن اللحاق بها ، فاغتاظ ورماها بعصاه ليقفها فى مكانها . ولهذا يطلقون أحيانا اسم «جان دى ميلان» على « الملوك الثلاثة » :

ولكن أجمل النجوم وأكبرها قدرا « نجمة الراعى » التى تنير لنا الطريق فى الفجر عندما نخرج بالماشية الى المرعى ، وفى المساء عند ما نعود بها الى الحظيرة . ونسميها أيضا « ماغلون » وهى الجميلة التى تمشى دائما إثر « بيير دى بروفانس » (زحل) لتتزوج به كل سبع سنوات مرة واحدة .

ـ ماذا تقول ! وهل من زواج عند النجوم ؟

ـ نعم أيتها الآنسه

ولما أخذت أشرح لها محور هذا الزواج احسست بشىء ناعم يثقل على كتفى فى لطف ورقة ؛ فنظرت فأذا برأسها الناعس متكئا على ، واذا بشرائطه الحريرية وتخاريمه اللطيفة وشعره المجعد تلك بى الى ان بدأت الكواكب تصفر فى سمائها ، وأخذ ضوء الفجر ينبثق فى الافق البعيد ليمحو أثرها . اما انا فكنت أتأمل الفتاة النائمة بشىء من الحزن الخفيف . لا أفكر فى هدأة الليل وصفائه إلا بكل ما هو جميل وشريف . وعلى جوانبنا تتابع النجوم سيرها ببطء وسكوت كأنها قطيع من الغنم . وبين الفينة والفينة كنت أشعر ان ألطف وأجمل نجمة كانت قد أضلت الطريق فهبطت الى كتفى فنامت عليه بهدوء . . . .

كيفون (لبنان) محمد كرما

بلياس وملیزاند

للفيلسوف البلجيكى موريس ماترلنك

ترجمة الدكتور حسن صادق

(تابع)

اركل — من القادم ؟

جنفييف — انه بلياس وفى عينيه أثر البكاء

اركل — هذا أنت يابلياس ؟ اقترب منى حتى أراك فى النور

بلياس — تسلمت ياجدى رسالة من صديقى مارسيللوس فى الوقت الذى تسلمت فيه كتاب أخى . . . إن هذا الصديق العزيز على يعانى ألم الاحتضار . وهو يستقدمنى إليه ايرانى قبل أن يفارق العاجلة . ويقول فى رسالته إنه يعرف بالدقة اللحظة التى سيموت فيها ، وإنى أستطيع الوصول إليه قبل حلول تلك اللحظة إذا شئت . إنى ذاهب اليه فى الحال .

اركل — يجب عليك أن تنتظر قليلا ، على الرغم من ذلك إننا لاندرى ماذا تعده لنا عودة أخيك . ثم هل نسيت أن أباك ملقى على فراشه فى الغرفة التى فوقنا ، وقد شفه الداء وبراه السقم ؟ أليس من الجائز أن يكون أشد مرضا من صديقك ؟ ومن أولى برعايتك وعطفك ، الوالد أم الصديق ؟ (يخرج)

جنفييف — لاتنس أن تشعل المصباح الليلة يابلياس

« يخرجان متفرقين »

المنظر الثالث

(أمام القصر . تدخل جنفييف وملیزاند)

ملیزاند — ماهذا السكون المعتم الذى يخيم على الرياض ؟ إنه يدخل على النفس الرهبة والاكتئاب ! وماهذه الغابات الكثيفة الجاثمة حول القصر ؟ !

جنفييف — لما وطئت هذا المكان أثار هذا المنظر العجب فى نفسى وأخذ منها مأخذا شديدا . إنه رائع مخوف يغرق كل من رآه فى التأمل العميق . توجد أمكنة لايرى الانسان فيها نور الشمس ولا ضوء القمر ، فاذا ما طال مقامه بها ألفها واطمأن اليها . . . قضيت فى هذا القصر الموحش أربعين عاما أو تزيد قليلا . . . لو نظرت إلى الناحية الأخرى لرأيت نورا ينبعث من ماء البحر

ملیزاند — أسمع حركة قريبة منا

جنفييف — نعم . أحد الناس يسير نحونا . . . آه ! إنه بلياس . . .